دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابات المؤرخ المصري « عبدالرحمن الجبرتي »

للدكتور
عبدالمنعم إبراهيم الجميعي
الأستاذ المشارك في قسم التاريخ
بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالجنوب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

اختلفت الآراء في تقويم دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب بين مؤيد ومعارض، ومحايد، فالمادحون، ذكر أحدهم أنها دعوة إصلاحية تصحيحية، دعت إلى منع المنكرات والتجاهر بها، واتباع ما أمر به الله تعالى في قرآنه المجيد، من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون، والأئمة المجتهدون.[١] ومنهم من ذكر أنها كانت حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد، لذلك نادت بالعودة إلى الإسلام في صفاته الأولى، وطهارته ونقائه، ووحدانيته، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك، فلا إله إلا الله معناها كل ذلك والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد[٢]. ومنهم من قال أنها ردت على الضلالات، وأنارت مصابيح الهدى في دياجير الظلمات، ورفعت لواء التوحيد حتى عم في العالم الإسلامي نور الهدى والرشد، واستيقظ المسلمون من سباتهم، وبدت تباشير النهضة الإسلامية الشاملة[٣]. ومنهم من ذكر أنها كانت تبتغي «تقويض الحكم التركي، وتحرير الأماكن المقدسة[٤]»، وإعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى، عقيدة الصحابة والتابعين[٥].

أما القادحون، فقد تصدوا لمواجهة الدعوة، وتشويه حقيقتها، فألصقوا بها وبالقائمين عليها التهم، وأثاروا حولها الشبهات والافتراءات[٦]، وعَدُّوها شبحاً مخيفاً،

(١) عبدالرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار. الجزء الرابع، القاهرة ـ المطبعة العامرة الشرفية ١٣٢٢هـ، ص ٥.

(٢) أحمد أمين: فيض الخاطر، الجزء الخامس، القاهرة ـ النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ص ١٨٨.

(٣) مسعود الندوي: محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه ـ ترجمة عبدالعليم البستري، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هـ، ص ص ٩، ١٠.

(٤) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض، المجلد الرابع، القاهرة ـ مكتبة البابي الحلبي ١٣٥٢هـ، ص ٨٣.

(٥) نفسه: المجلد الرابع، ص ١٦١.

(٦) انظر: عبدالرحيم عبدالرحمن: الدولة السعودية الأولى، جـ١ القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٧٩، ص ٥٠. وأحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ١٣٠٥هـ، ص ٢٣٠.

وأساءوا إلى سمعتها بين الناس، فادعوا أنها مذهب جديد، كما أطلقوا عليها اسم الوهابية، وكأنها بدعة أو دعوة جديدة إلى دين غير الدين الإسلامي، يضاف إلى ذلك أنهم أطلقوا عليها أسماء أخرى، منها: الخوارج.

والحقيقة أن هذه الدعوة كانت يقظة إسلامية، سداها ولحمتها العودة إلى أصول العقيدة عن طريق التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجماع السلف الصالح من الأمة، وقد أكد ذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب في إحدى رسائله قائلاً: «إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ومسلماً وما كان من المشركين، ولست ولله الحمد أدعوة إلى مذهب صوفي، أو فقيه متكلم، أو إمام من الأئمة. . .، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، التي أوصى بها أول أمته وآخرهم» كما أنني «متبع ولست بمبتدع عقيدتي»(٧).

ومن هنا فإن هذه الدعوة لم تأت بجديد على الإسلام لأنها لم تقدم شيئاً جديداً غير التفسير الصحيح للكتاب والسنة، كما أنها لم تأت بمذهب فقهي جديد، لأنها تتبع مذهب الإمام أحمد بن حنبل، يضاف إلى ذلك أنها جاءت لتخليص الأمة الإسلامية، والعقيدة المحمدية من البدع والخرافات، والتمسك بالتوحيد بعد أن اختلطت السنن بالبدع، وترك المسلمون كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهرت بينهم الوثنية في شتى صورها وأشكالها، فصار بعضهم يقدس الأشجار والأحجار، ويخضعون لها، ويتذللون أمامها، كما عد بعضهم الآخر قبور الأولياء مزارات حج وتقديس.

وأهمية كتابات الجبرتي(٨) لا ترجع فقط لكونه قد عاصر الأحداث، وسمع بها وكتب

(٧) جامعة الإمام محمد بن سعود: مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب. أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ القسم الخامس. الرسائل الشخصية، رسالة من الشيخ إلى عبدالله بن محمد بن عبداللطيف، ص ٢٥٢، ورسالة أرسلها إلى السويدي أحد علماء العراق، ص ٣٦.

(٨) ولد عبدالرحمن الجبرتي في القاهرة عام ١٧٥٤م وتعلم بالأزهر، وكان والده حسن الجبرتي من شيوخه، وقد شهد الجبرتي مقدم الحملة الفرنسية على مصر، وخروجها وما أعقبه من صراع على السلطة انتهى بتولية محمد علي، كما

عنها، ولكن لما اشتهر عنه من الصدق، وتحري الدقة في كتاباته والتمسك بحدود الله مهما كانت العواقب، ومهما كان حرج الموقف بالنسبة له خاصة وأنه كان يعيش في كنف وتحت سيطرة حاكم حارب الدعوة وناهضها، ومن هنا كانت كتاباته عن الدعوة كتابة المؤرخ المنصف، الذي كتب تاريخ مرحلة مهمة في حياة الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، أجاد فيها عرضه للصراع الذي خاضته الدعوة مع أعدائها والمتربصين لها، كما كان من أوائل المؤرخين الذين قدروا هذه الدعوة حق قدرها، فقد آمن بها في قرارة نفسه، لاتفاق أفكارها مع المذهب السلفي الذي يتمسك به، فقد عدها دعوة إصلاحية هدفها نبذ البدع والخرافات التي دخلت على الإسلام من زيارة الأضرحة والطبل والزمر في الموالد والأعياد ومواسم الحج، وغيرها من البدع التي كانت قد علقت بأذهان المسلمين في هذه الفترة، وقد دفعه ذلك إلى انتقاد أعدائها، فلم يخف استهزاءه بالجيوش العثمانية التي قادها طوسون ومحمد علي، وإبراهيم للقضاء على هذه الدعوة. ولما كان الجبرتي من المناهضين لزيارة الأضرحة والتشفع بالأولياء، وادعاء الغيبيات والكرامات، ويعتبر أن الوقف والنذر على القبور والأضرحة باطل[٩] فقد اتفقت أفكاره مع أفكار رجالات الدعوة، ويتضح ذلك فيما كتبه عنها وعن أصحابها في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وكيف كان واضحاً وصريحاً في سرده للأحداث، حتى ولو كان في ذلك ما يؤدي إلى جلب المشاكل والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها:

أولاً : بعد أن أحدثت الدعوة فزعاً لدى مناهضيها، حاولوا مقاومتها فشنوا عليها حرباً نفسية وفكرية لا هوادة فيها، بهدف إبعاد المسلمين عنها، وإيغار صدورهم ضدها، فذكروا أن أتباع الشيخ عطلوا سبل الحج إلى الحرمين الشريفين، وأنه من الواجب التخلص من هذه الدعوة، استنقاذاً للأماكن المقدسة من سيطرتهم.

عاش فترة حروب الحجاز بين أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجنود محمد علي، وكتب عنها في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي يعد من المصادر الهامة التي كتبت عن هذه الفترة.

(٩) د. أحمد عزت عبدالكريم (اشراف) : عبدالرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ص ٣٧٧.

ولما كان الجبرتي يعرف حقيقة الأمر، وهي أن أتباع الدعوة لم يمنعوا أحداً من الحج، إلا إذا كان مخالفاً للطرق الشرعية والتعاليم الإسلامية الصحيحة فقد ذكر ذلك بلا لبس أو مواربة، فقال: «والحال ليس كذلك، فإنه لم يمنع أحداً يأتي الحج على الطريقة المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل، والزمر، وحمل الأسلحة». وضرب مثلاً بالحجاج المغاربة الذين اتبعوا الطرق الشرعية أثناء الحج، فلم يعترضهم أحد، فقال: «حجوا وقضوا مناسكهم دون أن يعترض لهم أحد بشيء»[10] كما أوضح الجبرتي أن اتباع الدعوة لم يمنعوا قوافل الحجيج التي يتبع أصحابها البدع والطبل والزمر فجأة، بل أعطوا لأصحابها الفرصة، ونصحوهم بنبذ هذه العادات داخل الأماكن المقدسة في المرات القادمة، فذكر - في خلال حديثه عن المحمل المصري، وما يصحبه من طبل وزمر - أن أتباع الدعوة قالوا للمسؤولين عن المحمل، لا تفعلوا ذلك، ولا تأتوا به بعد هذه المرة»، وحذروهم من تكرار ذلك[11].

ونظراً لتكرار هذه المخالفات من قافلة الحج الشامي، ومخالفة أصحابها للشروط التي اشترطها عليهم أتباع الدعوة وإصرارهم على استعمال الطبل والزمر والأسلحة، وكل ما كان مخالفاً للشرع، فقد رد أتباع الدعوة على ذلك بأنهم أرسلوا لأمير هذه القافلة يقولون له: «لا تأت إلا على الشروط التي شرطناها عليك في العام الماضي»[12]. ولما سمع بذلك رجع بالقافلة من غير حج لإصراره على هذه المنكرات»[13].

والواقع أن أتباع الدعوة لم يمنعوا أحداً من تأدية شعائر الحج في أي وقت من

(١٠) الجبرتي : المصدر السابق جـ٤ ص ٥٤ تحت عنوان «واستهل شهر شوال بيوم الأحد سنة ١٢٢٣هـ. والجدير بالذكر أن المؤرخ الأمريكي لوثروب ستودارد قد أكد قول الجبرتي موضحاً أن ابن سعود لم يمنع قافلة الحج الشامي، بل طلب من أميرها عبدالله باشا والي الشام أن يدخل مكة ويقضي مناسك الحج هو وأصحابه. انظر: حاضر العالم الإسلامي جـ٤ ص ١٦٣.

(١١) الجبرتي : المصدر السابق، جـ٤ ص ٥٤ تحت عنوان «واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٢٢هـ.

(١٢) نفسه، جـ٤ ص ٥٣ تحت عنوان «ثم دخلت سنة ١٢٢٢هـ».

(١٣) نفســه.

الأوقـات، خاصة وأن تمسكهم بأركان الإسلام التي من بينها حج بيت الله الحرام ورغبتهم في إحياء المبادىء الإسلامية الصحيحة تجعل من الصعب اتهامهم بذلك، وربما كانت ظروف الحرب بينهم وبين خصومهم هي التي ساعدت على ترويج هذه الشـائعـات، ويبدو ذلك واضحاً في أنه بعد أن استقرت الأمور لرجالات الدعوة تأكدت سلامة الحج وتأدية المناسك.

ثانياً : وعندما اشتدت شوكة الدعوة وانتشرت، وازداد أتباعها خشي أصحاب المصالح من البدع والأباطيل على مصالحهم، فأخذوا في إثارة القلاقل وبث الدعايات المغـرضـة ضدهـا، واستنجـدوا بالسـلاطين العثمانيين، بحجة قيام أنصار الدعوة بالاستيلاء على ما في الحجـرة النبـوية الشريفـة من مجوهرات وأموال وتحف أوضح الجـبرتي ما حدث مستنداً إلى قدرته على إيضاح حقيقة أمور الدين وجوهره فقال: «وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء من الملوك والسلاطين الأعـاجم وغـيرهم، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلما تقادمت عليها الأزمنة. . ارتسم في الأذهان حرمة تناولها، وأنها صارت مالاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يجوز لأحد أخذها، ولا انفاقها»[١٤].

وقد علق الجبرتي على ذلك بقوله: «والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا في حياته، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، واختار أن يكون نبياً عبداً ولم يختر أن يكون نبياً ملكاً»[١٥].

واستعان الجبرتي في إثبات تعفف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزهده في الدنيا بما رواه الترمذي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحـاء مكـة ذهبـاً قلت لا يارب، ولكن أشبـع يوماً وأجوع يوماً. . . فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك[١٦]. » كما ذكر موضحاً بأنه إذا

(١٤) الجبرتي : المصدر السابق جـ٤ ص ٩٠ تحت عنوان «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء ١٢٢٣هـ.

(١٥) نفسه ص ٩٠ .

(١٦) الترمذي ، باب الزهد (٣٥) وانظر أيضاً تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي جـ٧ ص ص ١٢ ـ ١٤ .

كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد منع بني هاشم في حياته من تناول الصدقة وحرمها عليهم، فإن كنز المال في حجرته الشريفة وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين والمحتاجين أمر لا يوافق عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا الشرع[17] فليس في الدين تقديم الهدايا وتعليقها لقبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن الدين يحرم كنز الذهب والفضة، ويأمر بانفاقها في سبيل الله، يضاف إلى ذلك أن الإمام سعود كان قد استفتى علماء المدينة بصرف ما في الحجرة في منفعة الإسلام والمسلمين، فأفتوه بذلك أنه ينبغي على ولي الأمر إخراج المال الذي في الحجرة وصرفه في حاجة أهل المدينة وجيران الحرم، خاصة وأن الحاجة والضرورة كانت قد اشتدت إلى إخراج هذا المال وانفاقه[18]. ومن هنا كانت الفريةالتي رددها أعداء الدعوة حول هذا الموضوع للنيل منها ومن أصحابها، قد فندها الجبرتي ودحضها.

ثالثاً: ولما كانت الأداة التي استغلها السلطان العثماني للحد من قوة الدعوة هي جيش محمد علي المكون من الألبان، فإن الجبرتي قد ذكر حقيقة هؤلاء الجند، ولم يخف سخطه عليهم وإظهارهم على صورتهم الحقيقية فاستهزأ بأفعالهم، وقارن بين ذلك وبين ما يفعله أتباع الدعوة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، والذين كانوا في قتالهم يصلون صلاة الخوف، بينما كان جنود محمد علي لا يفهمون قواعد الدين، وقد استشهد الجبرتي في ذلك بصورتهم في المعسكر الذي اجتمعوا فيه قبل السفر إلى الحجاز، فحكى عن أنواع المحرمات التي فعلوها في شهر رمضان قائلاً: «يأكلون ويشربون جهاراً في نهار رمضان ويقولون نحن مسافرون ومجاهدون.. كما كانوا يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزه ويلعبون القمار جهاراً في نهار رمضان ولياليه»[19].

---

(١٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٩١ (ذي الحجة ١٢٢٣هـ).

(١٨) محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي. المملكة العربية السعودية ـ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص ١١٣.

(١٩) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٢٢٨ تحت عنوان «واستهل شهر رمضان بيوم الأربعاء سنة ١٢٣٩، انظر أيضاً ص ٣١٠.

ولما انهزمت جيوش طوسون بن محمد علي في وادي الصفراء على يد السعوديين في ١٣ ذي الحجة ١٢٢٦هـ لم يستطع الجبرتي أن يخفي ما يكنه في صدره تجاههم فأوضح حقيقة ما حدث مبيناً كيف كان فرار هؤلاء الجند مزرياً، فقال: «انهزموا جميعاً وولوا الأدبار، وطلبوا جميعاً الفرار، وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم، فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف، ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله.. حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في القطائر يخوضون في البحر إلى رقابهم كأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم»[٢٠].

ثم شرح أسباب هزيمتهم واندحارهم على لسان بعضهم بقوله: «ولقد قال بعض أكابرهم من الذين يدعون الإصلاح والتورع، اين لنا بالنصر، وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات، لا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين»[٢١].

وقارن الجبرتي بين هؤلاء وبين عساكر الدولة السعودية الأولى، فوصف تقواهم وورعهم وتمسكهم بالدين قائلاً: «والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا كان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته»[٢٢].

وبعد أن انتصر جند محمد علي في بعض المعارك، واستطاعوا الوصول إلى بدر، وصف الجبرتي ما فعله هؤلاء الجند مع الأهالي من أهوال تقشعر لها الأبدان، وقارن بين ما فعله هؤلاء وبين ما يفعله جنود الدعوة عند انتصارهم فقال عن جند محمد علي: «ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها

---

(٢٠) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ١٤٩ تحت عنوان: «ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف».

(٢١) نفسه.

(٢٢) نفسه.

أهـل العلم والعلماء نهبـوهم، وأخـذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعض لبعض ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج»[٢٣].

وقد تعجب الجبرتي من هذه الأفعال قائلاً: «وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون وأحرار»[٢٤]، كما آلمه القتل والتنكيل الذي أحدثته قوات محمد علي في أنصار الدعوة، فأبدى غضبه من ذلك قائلاً: «كيف تقتلون أناساً يقولون لا إله إلا الله».

أما عن اتباع الدعوة فقد وصفهم الجبرتي بأن جل همهم كان تنقية الدين من البدع والخرافات، فأوضح أنه بعد انتصار الأمير سعود ودخوله مكة في عام ١٢١٨هـ عقد مجلساً بالحرم، وتباحث في شأن البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة التي يتبعها الناس[٢٥]، وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها، وشرب الأراجيل بالتنباك في المسعى بين الصفا والمروة (كما أمر) بالملازمة على الصلوات في الجماعة، ودفع الزكاة، وترك لبس الحرير والمقصبات، وإبطال المكوس والمظالم[٢٦]. «بعد أن وصل الحال في هذه البلاد المقـدسـة إلى حال لا تحتمل من الظلم حتى وصل الأمر ببعض الناس أنهم كانوا يأخذون على الميت إتاوة حتى يستطيع أهله دفنه، وإذا لم تدفع هذه الإتاوة يظل الميت بلا دفن، يضاف إلى ذلك أنهم استحدثوا العديد من المكوس على البيع والشراء، وصادروا أموال العديد من الناس ومساكنهم»[٢٧].

كما طلب الأمير سعود من المجتمعين في الحرم اتباع ما أمر به الله تعالى، واتباع سنة الـرسـول ـ عليه السلام ـ، وما سار عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمـة المجتهـدون، وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله، مثل تقبيل

---

(٢٣) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ١٤٩ تحت عنوان «ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف».

(٢٤) نفسه ص ٣٢٦ تحت عنوان «واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٣٥هـ.

(٢٥) نفسه جـ٣ ص ٢٦٨ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨هـ».

(٢٦) نفسه جـ٤ ص ٥ تحـت عنـوان «سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف».

(٢٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٥ تحت عنوان: «سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف».

الأعتاب، والخضوع والتذلل والمناداة والنذور واختلاط النساء بالرجال[٢٨].

كما ضرب الجبرتي مثلاً آخر لبيان الفرق بين جنود الدعوة، وبين جنود محمد علي، فأوضح أنه بعد دخول أتباع الدعوة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، «لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات، وشرب التنباك في الأسواق، وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم»[٢٩].

ومما ذكره الجبرتي يتضح أن الجند المتمسكين بعقيدتهم هم دائماً على خشية الله في أعمالهم وأفعالهم، أما الجند الذين لا يأبهون بدين أو عرف، فالنهب والسلب كان طريقهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل اشترك المصريون في جيش محمد علي أثناء محاربته للسعوديين؟.

الواقع أن المصريين كانوا بعيدين عن الجندية خلال هذه الفترة، وأن جيوش محمد علي كانت خالية تماماً منهم، بل كانت تتكون من الترك، والألبان والمغاربة، ويؤكد ذلك أن المؤرخين الذين عاصروا هذ الفترة وكتبوا عنها ذكروا في كتاباتهم أن قوات محمد علي ـ التي دخلت الجزيرة العربية ـ كانت من غير المصريين، وذكروا هذه القوات مرة باسم «الترك»[٣٠]، ومرة باسم «الدالاة»[٣١] ومرة باسم «الططر»[٣٢]، ومرة باسم المغاربة[٣٣]. وتذكرنا وقائع التاريخ أن رغبة محمد علي في التخلص من جنوده

(٢٨) نفســه.

(٢٩) نفسه جـ٣ ص ٣٦٧ تحت عنوان «شهر رجب ١٢٢٠هـ».

(٣٠) انظر على سبيل المثال: الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ص ١٥٥، ١٥٩، ٢٢٦، ٣٠٨.

(٣١) انظر على سبيل المثال: الجبرتي جـ٤ ص ٢٤١، ٢٤٥. والجدير بالذكر أن الدلاة جاءوا من نواحي الشام وجبل الدروز والمناولة.
للتفاصيل انظر: الجبرتي جـ٤ ص ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣٢) انظر على سبيل المثال: جـ٣ ص ٣٧١.

(٣٣) انظر على سبيل المثال: الجبرتي جـ ٤ ص ص ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٢٦.

الإنكشارية، والألبان الذين جلبهم معه من تركيا إلى مصر لا خراج الفرنسيين، وكانوا يثيرون الشغب والاضطراب ضده في بدايات حكمه لمصر، هي التي شجعته على دخول الحرب بهم ضد السعوديين حتى يتخلص منهم ويبعدهم عنه(٣٤). كما تذكرنا وقائع التاريخ أيضاً أن المصريين لم يدخلوا الجندية في عهد محمد علي إلا في عام ١٨٢٠ ميلادية(٣٥)، بينما كانت حروب محمد علي في الجزيرة العربية قد انتهت في أواخر عام ١٨١٨م بسقوط الدرعية(٣٦).

يضاف إلى ذلك أن هذه الحرب كانت غرما على المصريين لا غنما لهم، فقد أوضح الجبرتى أن محمد على أرهقهم مادياً، بحجة حروبه في الحجاز فأمر بزيادة الضرائب عليهم، «وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز»(٣٧). هذا إلى جانب ما أوضحه الجبرتي من أن هذه الحروب أوجدت حالة من اختلال الأمن والارتباك الاقتصادي، وعدم استقرار معيشة المصريين، لدرجة أن عسكر محمد علي وقفوا «خارج المدينة يخطفون ما يأتي به الفلاحون من السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك»(٣٨). وتوالت المظالم، وتزايدت أنواعها، مع «استمرار الغلاء في جميع أسعار المبيعات والمآكل والمشارب بسبب ذلك»(٣٩) لدرجة أن قل اللحم والسمن والجبن خاصة بعد أن أخذ محمد علي مواشي الفلاحين وأغنامهم(٤٠). وكل ذلك زاد أحوال المصريين ضنكاً على ضنك، وأرهقهم في المساهمة في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

(٣٤) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: الدارة: العدد الرابع. السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢ تحت عنوان: «محمد علي ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية ص ص ٤٥ ـ ٥٣.

(٣٥) انظر على سبيل المثال: عبدالرحمن الرافعي «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ـ الجزء الثالث ، عصر محمد علي. القاهرة الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م ص ص ٣٥٤ ـ ٣٦٧.

(٣٦) نفســه ص ١٥٣.

(٣٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٣ تحت عنوان «واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الجمعة سنة ١٢٣٣هـ».

(٣٨) نفسه جـ٣ ص ٣٦٩ تحت عنوان «واستهل شهر رمضان بيوم السبت سنة ١٢٢٠هـ».

(٣٩) نفسه: جـ ٤ ص ٩٠ تحت عنوان: «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء سنة ١٢٢٣هـ».

(٤٠) نفســه.

وهكـذا كان موقف الجـبرتي واضحـاً في نقـده لجنـود محمـد علي الذين ارتكبوا المنكـرات، وفعلوا من الأهـوال ما تقشعر له الأبدان، في حين أن جنود ورجالات الدعوة لم يكن لهم من هدف سوى إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى.

ولم يقتصر موقف الجبرتي في الدفاع عن الدعوة ضد خصومها، بل أوضح أهدافها وغـاياتها كما ذكرها أحد رجالاتها البارزين، فبعد أن حدث لبس وسوء فهم حول الدعوة، واختلف بعض الناس في أمرها بين مؤيد ومعارض، نشر الجبرتي الكتاب الذي كان الأمير عبدالعزيز بن سعود قد بعثه إلى أمير الحج المغربي، والذي أوضح فيه حقيقة الدعوة وأهدافها، فذكر أنها تدعو إلى التوحيد، وعدم الشرك بالله، وتشهد بأن سيدنا محمد هو عبدالله ورسوله وكل من يخالف ذلك فقد ظلم نفسه واستشهد في ذلك بقوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٤١).

وبقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤٢).

وبقوله عز وجل:

﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾(٤٣).

وبقوله تعالى:

﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾(٤٤).

---

(٤١) سورة يوسف آية (١٠٨).
(٤٢) سورة آل عمران آية (٣١).
(٤٣) سورة الحشر آية (٧).
(٤٤) سورة المائدة آية (٣).

وأوضح ضرورة نبذ الخرافات، وأهمية اتباع ما أنزل الله تعالى مستشهداً بقوله الكريم:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ... ﴾(٤٥).

وأشار إلى أن أهم أسباب ما أصاب البلاد الإسلامية من نوازل وكوارث كان نتيجة لشرك الناس بالله «والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب السماوات وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القرابين، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد»(٤٦) مع أن الله تعالى هو القادر على كل شيء، ولا يقبل مثل هذه الأعمال، فقد قال تعالى:

﴿ ... فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(٤٧).

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يقبل من عباده إلا ما كان لوجهه، فقال تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤٨).

كما قال تبارك وتعالى:

﴿ ... مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ

(٤٥) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٤٦) الجبرتي: المصدر السابق ص ص ٢٧٠، ٢٧١ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨.

(٤٧) سورة الزمر آية (٢، ٣). (٤٨) سورة يونس آية (١٨).

﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ...﴾[49].

وأوضح الأمير سعود بن عبدالعزيز أن كل ما ذكر أجمع عليه الأئمة الأربعة، ومن سلك سبيلهم، أما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإضاءتها والصلاة عندها ونذر النذور لها فكل ذلك من الحوادث والأمور التي حذر منها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ثبت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ «أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ولا تمثالاً إلا طمسه» ولهذا وجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أوجب الخلاف بين أنصار الدعوة وبين من حاولوا تكفيرهم حتى وصل إلى درجة مقاتلتهم[50]، امتثالاً لقوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[51].

وهكذا ترك لنا الجبرتي وثيقة هامة بينت أهداف الدعوة ومراميها على لسان أحد قادتها، والتي اتضح منها أن أقوال أصحاب الدعوة لا تختلف عن أفعالهم.

وأخيراً فقد أكد الجبرتي قوة دعاة الدعوة وأصالتهم العلمية والدينية فبعد أن اجتمع باثنين منهم في القاهرة خلال أسر محمد علي لهما، قال: «قد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما أنساً وطلاقة لسان، واطلاعاً وتضلعاً ومعرفة بالأخبار والنوادر، ولهما من التواضع والتهذيب والأخلاق وحسن الأدب في الخطابة والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية، واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف»[52].

(٤٩) سورة البقرة آية (٢٥٥).

(٥٠) الجبرتي: المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧١ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨».

(٥١) سورة البقرة آية ١٩٣.

(٥٢) الجبرتي: المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧١.

ومع أن الجبرتي قد انصف الدعوة في كثير من المواقف وأيدها من خلال استنكاره للبدع ، فيبدو أنه كان متأثراً في بعض الأحيان بالألفاظ التي رددها أعداء الدعوة، ففي خلال سياقه لبعض الحوادث ذكر بعض هذه الألفاظ مثل كلمة الوهابية، وكلمة الوهابي[٥٣] وغيرها من الكلمات التي أطلقت على الدعوة وأتباعها.

وقد يكون للجبرتي العذر في ذلك حيث كان يسجل تلك الأحداث وهو بين سمع ألد أعداء الدعوة وبصرهم، ويعيش في كنفهم وتحت سيطرتهم ونفوذهم[٥٤].

ويكفينا أن نذكر أن تمسك الجبرتي بذكر الحقائق التاريخية دون مواراة أو مجاملة لمحمد علي أو لغيره، قد جلب له الضرر البليغ ففقد ابنه خليل الذي قتله جنود محمد علي أثناء صلاة الفجر، كما فقد بصره حزناً، وكمداً على ابنه يضاف إلى ذلك أن منزله أحرق بعد وفاته بسبب كتاباته المعادية لمحمد علي.

ومهما قيل أو يمكن أن يقال عن الجبرتي، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن ما كتبه عن الدعوة، وعن حملات محمد علي وجنوده على الجزيرة كان ذا فائدة تاريخية عظيمة دائماً ما تؤخذ بعين الاعتبار، وإن ما كتبه عن الدعوة قد توخى فيه عين الحقيقة دون مواربة حيث كتب ما سمعه وما رآه بصدق سيظل مضرب الأمثال بين المؤرخين والباحثين.

---

(٥٣) نفسه جـ٣. انظر على سبيل المثال ص ص ٢٩٥ ، ٣١٨، وفي الجزء الرابع انظر : ص ص ١٧ ، ٨٣ ، ٩٠ .

(٥٤) من مقدمة الأستاذ حمد الجاسر لكتاب من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ص ٨.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أحمد بن زيني دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ١٣٠٥هـ.

٣ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي . الجزء السابع ، بيروت دار الفكر للطباعة والتوزيع .

٤ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب . المملكة العربيةالسعودية ، أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ القسم الخامس الرسائل الشخصية .

ثانياً : المراجع :

١ ـ أحمد أمين : فيض الخاطر ـ الجزء الخامس . القاهرة ـ النهضة النصرية ـ الطبعة السادسة .

٢ ـ أحمد عزت عبدالكريم (إشراف) : عبدالرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث ـ القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

٣ ـ عبدالرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الثالث ـ عصر محمد علي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٣٠م .

٤ ـ عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى جـ١ القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٧٩م .

٥ ـ لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض المجلد الرابع . القاهرة ـ مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٥٢هـ.

٦ ـ محمد أديب غلاب : من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، المملكة العربية السعودية ـ دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٧ ـ مسعـود النـدوي : محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه. ترجمة عبدالعليم البستوي. المملكة العربية السعودية ـ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ثالثاً : الدوريـات :

١ ـ الدارة : العدد الرابع ـ السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢م م١.